

## تصدير

إن ما أقدمه إليك عزيزى القارئ مجرد قراءة لبعض النصوص المصرية القديمة فى الفكر السياسى . كل ما هنالك أن هذه القراءة قد قدمت من منظور فلسفى يحلل المحتوى الفكرى لتلك النصوص وصولاً إلى معرفة معالم الفكر السياسى فى مصر القديمة . وهى محاولة من جانبنا للتعرف على الفلسفة السياسية الكامنة فى عقل ووجدان المصريين القدماء سواء كانت هذه الفلسفة تابعة فى عقول الملوك أو فى وجدان الشعب من خلال ما اكتشف حتى الآن من نصوص تمثل فكر عينة عشوائية من المصريين سواء كانوا حكاماً أو محكومين .

وقد تبين لنا تعدد مستوى الخطاب السياسى فى مصر القديمة؛ فهناك خطاب السلطة السياسية المتمثل فى المراسيم الصادرة عن الملوك المصريين القدماء سواء كمنشآت يقدمونها إلى الأمراء من أبناءهم أو كتعليمات ووصايا صدرت على شكل تكاليفات لوزرائهم .

وهناك خطاب الحكماء الذين حملوا فيه على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وانتقدوا الحكام الذين تسببوا فى هذه الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصور الانتقال التى شهدتها مصر القديمة . ولم يتوقف الخطاب السياسى للحكماء المصريين القدامى عند حد وصف الأوضاع القائمة ونقدها وبيان المتسببين فيها ، وإنما قدم هؤلاء الحكماء رؤاهم الحالمة بشأن المستقبل فحلم كل منهم بما يشبه المدينة الفاضلة وتنبأوا بما يمكن أن يحمله المستقبل القريب لبلادهم من حكام جدد أقوياء عادلين يتمتعون بكل صفات البطولة السياسية والقدرة على تحقيق العدالة والاستقرار ، كما قدموا تصوراتهم حول صورة هذا الحاكم الأمثل وحول ما ينبغى أن يكون عليه الحال فى الدولة السعيدة المثالية .

وهناك كذلك خطاب الشعب ، والمقصود بخطاب الشعب هو ذلك الخطاب السياسى الذى صدر من أفراد عاديين تعرضوا للمظالم فجأروا بالشكوى ورفعوا شكواهم إلى السلطة السياسية معبرين فى هذه الشكوى عن سخطهم على الأوضاع السياسية والاقتصادية

---

المتدهورة ، ومطالبين بتحقيق العدالة ورد المظالم ومعاقبة الظالمين  
ورد الحقوق، إلى أصحابها .

وهناك ما أسميه أيضا الخطاب الدبلوماسي ، ذلك الخطاب  
السياسي الذي علمت مصر من خلاله العالم كيف تكون العلاقات  
الدولية ؟ وكيف تعقد المعاهدات بين البلاد ؟ وما هي الأصول  
والتقاليد السياسية التي يجب أن تراعى في كل ذلك ؟

إن هذه الصور المتعددة للخطاب السياسي بمستوياتها المختلفة،  
قد أكتت حسب ما كشف عنه تحليلنا لها أن الفكر السياسي في مصر  
القديمة قد بلغ حدا بعيدا من النضج في تلك الفترة المبكرة من تاريخ  
البشرية .

فلقد أقام المصريون نظامهم السياسي على العدالة والنظام  
(الماعت) ، وكان تصورهم للعدالة والنظام تصورا شاملا يركز على  
تحقيق أكبر قدر من المساواة الاجتماعية بين البشر ، وعلى تحقيق  
أكبر قدر من الرخاء الاقتصادي والرفاهية لبني الإنسان ونجح  
المصريون في أن يحققوا هذه العدالة بمفهومها الاجتماعي والسياسي،

---

وأن يقدموا صورة مثلى لكيفية تحقيق التوازن بين سلطات الدولة المختلفة إذ رغم ما يشاع عن أن النظام الملكي المصرى للقديم كان نظاماً إلهياً مقدساً ، إلا أنه كان نظاماً مقيداً بتحقيق العدالة والرفاهية للإنسان المصرى ، ومقيداً بالالتزام بالقوانين والأعراف التى توارثها المصريون جيلاً بعد جيل .

لقد أدرك الملوك المصريون أنهم إنما يكتسبون الخلود والمجد بقدر ما يكونون فى خدمة الشعب ، ويقدر ما يحققون من عدالة ورخاء بين مواطنيهم . كما بادل الشعب المصرى حكامه وملوكه حباً بحب واحتراماً باحترام يقدر ما يحافظ هؤلاء الملوك والحكام على الاستقرار ويقدر ما يحافظون على تطبيق العدالة والنظام ، ويقدر ما يوفره لهم من ظروف اقتصادية وحرية تسمح لهم بالإنجاز والعمل والاستمتاع بالحياة .

إن قراءة تلك الصور العديدة للخطاب السياسى فى مصر القديمة قد أثبتت أمامنا بما لا يدع مجالاً لأى شك أن المصريين القدامى قد ابتدعوا أول معالم النظام السياسى وأول معالم لمجتمع

مدنى متحضر فى تاريخ الإنسانية ، فقد أدركوا جيداً مفهوم الدولة المركزية ، ومفهوم الملكية العادلة ، ومفهوم تعدد السلطات والإدارات داخل الدولة الواحدة ، كما وعوا وأدركوا ضرورة الفصل بين هذه السلطات لكى تتمكن كل منها من أداء دورها على خير وجه. كما أبدعوا مفهوم اللامركزية فى الإدارة المحلية ، دون الإخلال بالسلطة المركزية لإدارة الدولة .

إن المصريين القدامى كانوا أول من أدرك أن قيام السلطة السياسية إنما هو بهدف تحقيق " العدالة " للجميع . وأن الحكومات تكتسب الاحترام والتقدير بقدر ما تسهر على تنفيذ القوانين وبقدر ما تتجح فى تحقيق الاستقرار والعدالة بين المواطنين . إن قوام النظام السياسى ، المدنى فى نظرهم هو تحقيق " الماعت " ، ومن ثم فإن انهياره يكون مرهوناً بالتراخى فى تحقيق الماعت أيضاً .

ومن ثم فقد أدرك المصر يون منذ ذلك التاريخ البعيد علة قيام الدول وعلة انهيارها وقدموا أبلغ تعبير عرفه التاريخ السياسى عن هذه العلة حينما قالوا إنها تتلخص فى تحقيق " العدالة والنظام " أو فى غياب العدالة والنظام .

إنّ لقد تمحورت فلسفتهم السياسة وفلسفتهم للتاريخ حول هذا المفهوم الشامل للماعت . وسيلحظ القارئ العزيز أنّ " الماعت " هي الغاية وهي المطلب النهائي لكل صور الخطاب السياسي في مصر القديمة ، فهي التي ينصح بتطبيقها بأقصى قدر من الدقة والحياد الملوك والوزراء ، وهي ما يشكو من عدم وجودها الشلكون من أفراد الشعب . ففي وجودها الاستقرار والرخاء والأمان ، وفي غيابها تسود الفوضى والفساد ويعم القحط والجوع وكل أنواع الشر .

وليس بخاف على القارئ العزيز أنّ " العدالة " وتحقيقها في المجتمع لا يزال هو " المطلب " الأساسي الذي ينشده كل من يعيش في مجتمع مدنى سياسى . ولا يزال هو " الجوهر " الذي يبحث عنه ويدور حوله الفكر السياسى الحديث سواء على الصعيد العملى - الواقعى فيما يعرف بعلم السياسة والنظم السياسية أو على الصعيد الفكرى - النظرى فيما يعرف بفلسفة السياسة .

ولقارئنا العزيز أنّ يفخر بأن المصريين للقنماء هم أول من بحث ونقب ، وأول من خطط وطبق ، وأول من نقب وعاتب طلباً للعدالة .

---

ولقارننا العزيز أن يفخر بأن بلاده مصر هي التي أهدت العالم أول صورة للنظام السياسى المتكامل وهي التي علمت العالم أن جوهر الحياة الإنسانية على الصعيدين الأخلاقى والسياسى إنما هو تحقيق " العدالة " .

وفى الصفحات القادمة سيطالع القارئ العزيز بعض معالم الفكر السياسى المصرى من خلال ذلك التحليل الذى سنقدمه لبعض البرديات والوثائق المصرية القديمة . وبالطبع فلم يكن التحليل ممكنا هنا لولا أننا وجدنا أمامنا ترجمات عربية ناصعة لنصوص هذه البرديات والوثائق المنشورة فى العديد من كتب المؤرخين والبلحثين النفاة المتخصصين فى تاريخ وأثار مصر القديمة كسليم حسن وعبد المنعم أبو بكر وأحمد فخرى وعبد العزيز صالح وعبد القادر حمزة وغيرهم من المصريين ، وآلان جاندر وجيمس هنرى برستيد وبيير مونتيه وفلنדרز بترى وآلن شورتر وكليز لالويت وغيرهم من الأجانب .

ولا شك أنه كان ينقصنا في هذه القراءة للخطاب السياسى فى مصر القديمة معرفة اللغة المصرية القديمة - اللغة الهيروغليفية والإمام بأصول الاطلاع على هذه الوثائق بلغتها الأصلية . لكن جهود هؤلاء الأثريين والمؤرخين النقاة من الأجانب والمصريين قد سدت هذا النقص إلى حد كبير ، وإن كنت أتمنى أن يتوفر جيل قادم من الباحثين المتخصصين فى الفكر المصرى القديم يمتلك هذه القدرة على الاطلاع على النصوص المصرية القديمة بلغتها الأصلية ، ولعلى أجدها فرصة لأنأشد أقسام اللغات الشرقية القديمة وأقسام الدراسات الكلاسيكية بالجامعات المصرية الاهتمام بتدريس اللغة الهيروغليفية حتى لا يكون دراستها والتخصص فيها قاصرين على أقسام المصريات بكليات الآثار ، فاللغة الهيروغليفية هى أحد عناصر هويتنا القومية وهى إحدى الركائز التى تشكلت على أساسها الهوية المصرية منذ قديم الزمان .

وعلى كل حال فليغفر لنا القارئ العزيز كل ما سسيراه من نقص أو تقصير فى هذه القراءة الأولية لنصوص الخطاب السياسى

---

فى مصر القديمة . فكل ما نطمح إليه هو أن نزيل الغشاوة التى  
تجمعت أمام أعيننا فلم نعد نرى هذه الكنوز العظيمة فى تراثنا  
الفكرى فى مصر القديمة وخاصة أننا نعيش فى عصر تجمعت فيه  
العديد من قوى الشر لتطمس الإنجازات الحضارية لمصر القديمة .  
وأخذ بعضها ينسب هذه الإنجازات إلى الزوج وبعضها الآخر ينسب  
هذه الإنجازات لليهود . وأصبح المصريون بين ادعاءات الزوج من  
الأمريكيين الأفارقة ، وبين ادعاءات اليهود الصهاينة حائرين بينما  
هم أصحاب الحق الأول والأخير فى هذه الإنجازات العظيمة التى  
صنعها أجدادهم العظام ، إذ إن مصر لم تكن يوما هبة للنيل أو مدينة  
لأحد ، بل هى على الدوام هبة المصريين أنفسهم .

وإذا كنا اليوم نلمح تقصيرا هنا أو هناك ولم نعد نهتم كثيرا  
بما يدور حولنا وبما يكتب مهذرا كرامتنا ومقلدا من إنجازاتنا فى  
مختلف العصور ، فإنى أثق ثقة لا حدود لها فى أن الغد القريب  
سيشهد صحوة من الباحثين والمفكرين المصريين الذين سيهبون  
للدفاع عن حضارتهم وعن إنجازاتهم ، ويهبون حياتهم لصنع المجد

---

الجديد لمصرنا الحبيبة وإنى لألمح هذا الغد القريب فى عيون هذا الحاضر الزاهر الذى نعيشه هذه الأيام فى مختلف مجالات الحياة . والله أسأل أن يمنحنا قوة البصيرة والإبداع والفكرة على مواصلة الجهد فى سبيل إعلاء شأن مصر والمصريين دائماً . . . وهو من وراء القصد

د . مصطفى النشار

مدينة نصر القاهرة

فى ٣٠ مايو ١٩٩٨م

الموافق : ٤ صفر ١٤١٩هـ